فاذكُروني .. أذكرْكم

عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «قال الله سبحانه: إذا علمتُ أنّ الغالب على عبدي الاشتغال بي، نقلتُ شهوتَه في مسألتي ومناجاتي، فإذا كان عبدي كذلك وأراد أن يسهو، حلْتُ بينه وبين أن يسهو، أولئك أوليائي حقّاً، أولئك الأبطال حقّاً، أولئك الذين إذا أردتُ أن أُهلك أهل الأرض بعقوبة، زويتُها عنهم من أجل أولئك الأبطال».

أوردَ هذا الحديث القدسيّ، العلّامة الطباطبائي في (تفسير الميزان)، في معرض تفسير الآية المباركة: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ البقرة:١٥٢.

تُقدّم «شعائر» في ما يلي، بعض ما أكّد عليه قدّس سرّه، حول «ذكر الله تعالى».

هذه دعوةٌ منه سبحانه للنبيّ صلى الله عليه وآله والمسلمين، إلى ذِكره وشُكره، ليُذكّرهم بنعمته على ذكرهم إيّاه بعبوديّته وطاعته، ويزيدهم على شكرهم لنعمته وعدم كفرانهم، وقد قال تعالى: ﴿..وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ الكهف:٢٤، وقال:﴿..لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ..﴾ إبراهيم:٧.

ثم إنّ الذكر ربّما قابل الغفلة، كقوله تعالى: ﴿..وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا ..﴾ الكهف:٢٨، والغفلة انتفاء العلم بالعلم، مع وجود أصل العلم، فالذكر خلافُه، وهو العلم بالعلم.

وربّما قابل النسيان، وهو زوال صورة العلم عن خزانة الذهن، فالذكر خلافه، ومنه قوله تعالى: ﴿..وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ..﴾ الكهف:٢٤، وهو حينئذٍ كالنسيان معنىً، ذو آثار وخواصّ تتفرّع عليه، ولذلك ربّما أُطلق الذكر كالنسيان في موارد تتحقّق فيها آثارهما وإن لم تتحقّق أنفسهما، فإنّك إذا لم تنصُر صديقك - وأنت تعلم حاجته إلى نصرك - فقد نسيته، والحال أنّك تذكره، وكذلك الذِكر. والظاهر أنّ إطلاق الذكر على الذكر اللفظيّ من هذا القبيل، فإنّ التكلّم عن الشيء من آثار ذكره قلباً، قال تعالى: ﴿.. قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ الكهف:٨٣، ونظائره كثيرة. ولو كان الذكر اللفظيّ أيضاً ذكراً حقيقة، فهو من مراتب الذكر، لأنّه مقصورٌ عليه ومُنحصِر فيه.

للذكر - إذاً - مراتب، كما قال تعالى: ﴿..أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ الرعد:٢٨، وقال: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ ..﴾ الأعراف:٢٠٥، وقال تعالى: ﴿..فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ..﴾ البقرة:٢٠٠، فالشدّة إنّما يتّصف بها المعنى دون اللفظ، وقال تعالى: ﴿.. وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ الكهف:٢٤.

وذيلُ هذه الآية دلّ على الأمر برجاء ما هو أعلى منزلة ممّا هو فيه، فيؤول المعنى إلى: أنّك إذا تنزّلتَ من مرتبةٍ مِن ذكره إلى مرتبة هي دونها، وهو النسيان، فاذكر ربّك، وارجُ بذلك ما هو أقرب طريقاً وأعلى منزلةً. فينتج: أنّ الذكر القلبيّ ذو مراتب في نفسه، وبذلك يتبيّن صحّة قول القائل أنّ الذكر حضور المعنى عند النفس، فإنّ الحضور ذو مراتب.

وقد رُوي بطُرُق مختلفة أنّ ذكر الله حَسنٌ على كلّ حال.

وروي: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد خرج على أصحابه فقال: «**ارتعوا في رياض الجنّة**، قالوا: يا رسول الله، وما رياض الجنة؟ قال: **مجالسُ الذكر، أُغدوا وروحوا واذكروا، ومن كان يحبّ أن يعلم منزلته عند الله، فلينظر كيف منزلة الله عنده، فإنّ الله تعالى يُنزل العبدَ حيث أنزل العبدُ اللهَ من نفسه، واعلموا: أنّ خير أعمالكم عند مليكِكم وأزكاها، وأرفعها في درجاتكم، وخير ما طلعت عليه الشمس، ذِكْرُ الله تعالى، فإنّه تعالى أخبر عن نفسه فقال: أنا جليسُ مَن ذكرني، وقال تعالى: فاذكروني أذكركم بنعمتي، اذكروني بالطاعة والعبادة، أذكركم بالنِّعم والإحسان والراحة والرضوان**».

وعن الصادق عليه السلام قال: «**إنّ الله تبارك وتعالى يقول: من شُغِل بذكري عن مسألتي، أُعطيه أفضلَ ما أُعطي مَن سألني**».

وعنه عليه السلام: «**ألا أُحدِّثك بأشدّ ما فرض الله على خلقه؟** قلتُ: بلى. قال: **إنصافُ الناس من نفسك، ومواساتك لأخيك، وذكر الله في كلّ موطن، أما إنّي لا أقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وإن كان هذا من ذاك، ولكنْ ذكرُ الله في كلّ موطن، إذا هجمتَ على طاعته أو معصيته**».